دلالة الرمز الديني الأحادي والمركب

في شعر الفزاني "مهاد وتطبيق"

أ. آمال محمد أبوشويرب

قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم – صبراتة

جامعة الزاوية

لا يختلف اثنان في أن الشعر الحديث يعتمد الرموز ويباهي بها، وما أجمل الرمـــز أداة للتفاهم والإيحاء، إنه روح اللغة الناطق بما يعجز عنه لسانها ولكنّ الرمز هو غير اللغز ، فاللغز لا يفهم ولا يوحي أما الرمز فإنك تفهم من إيماءاته أضعاف ما تفهم من كلمته فقد أتيح لشـــعرائنا المعاصرين أن تقع أعينهم على رموز تتفرع عن أصول دينية وتاريخية وأســـطورية وطبيعيـــة

وشعبية وفلسفية كثيرة ثرية خصبة كانت في أغلب الأحيان أقنعة نفسيّة ومناهل غزيرة تتفق مع نزعاتهم، وذلك لتجاوز الواقع العربي الأليم، سلوكاً وفكراً وفناً وتشوقاً إلى عوالم أكثر رحابة وصفاء واطمئناناً[(1)].

"فقد بات واضحاً اليوم أن حداثة القصيدة العربية لا تكمن فقط في خروج الشاعر على الوزن والقافية ، بل تتمثل حقاً في انعطافاته الكبرى لبلورة رؤيا خاصة به، وما ترتب على ذلك من بحث عن رموز وأساطير واقنعة يجسد فيها، ومن خلالها رؤياه ويمنحها شكلاً حياً ملموساً"[(2)].

"فالحداثة ليست هدماً مجرداً لجدار عروضي أو انقلاباً من النظام إلى الفوضى – بل هي سهر عظيم ورحلة لاتهدأ من أجل شكل للروح يلبسها وتلبسه، لتصبح الروح في مرحها وفوضاها شكلاً حاراً ، كما يصبح الشكل في مرونته وقسوته ملاذاً للروح".[(3)]

وقد يفرض الواقع الجديد على الشاعر لغة جديدة قادرة على استيعاب آليات تحولات وتطورات المرحلة برموز وإشارات إيحائية خوفاً من ملاحقة الآخرين وهي إحدى سمات بلاغة المقموعين على حد قول جابر عصفور، حيث يتقنع النص في مواجهة السلطة الدينية والسياسية والاجتماعية وهذا يقود إلى الكتابة الباطنية أو الكتابة الشفرية التي تكتب بعلامات لا يعرفها سوى كاتبها وقارئها ، فهي ترميز سري بالكتابة يعول عليه إذا شعر الكاتب أو القارئ أن المكتوب يحتاج إلى ستر[(4)]، وعادة ما نلتمس ذلك في نوعين من الرموز "الدينية والتاريخية خاصة" فاندفع الشاعر الحديث إلى التأمل في ذخيرته من تلك الرموز العامة وتفحص استخدامته لها في خِضَمِّ حركة الحداثة ، وما أشاعته من مزاج ووعي جديدين سعى إلى خلق رموز خاصة

تلتصق بعالمه الشعري وتصبح جزءاً داخلياً حميماً من بنائه ولغته وانشغلاته الفكرية والوجدانية والفنية.

فرمز "القمر مثلاً لم يعد كونه رمزٌ للجمال والحب ، وكذلك الأمر بالنسبة للوردة أو الغيمة أو البحر أو الليل. فقد وجد الشاعر إن عليه أن يتجاوز الرموز الجاهزة أو على الأقل أن يعيد شحنها بما يجعلها أكثر صلة به فتصبح تلك الرموز رموز شخصية تثري حداثة الشعر وحداثة الرؤيا على حدّ سواء(5)

والرموز الشخصية هي تلك الرموز التي يبتكرها الشاعر ابتكاراً محضاً أو يقتلعها من حائطها الأول أو منبتها الأساس "الرمز العام" ليفرغها جزئياً أو كلياً من شحنتها الرمزية الأولى ثم يملأها بدلالة شخصية أو مغزى ذاتي مستمد من تجربته الخاصة وفي كلتا الحالتين يصبح الرمز ذا نكهة شخصية يغدو مفتاحاً مهماً يساعد على فهم تجربة الشاعر، وفض المغاليق التي تفضي إلى هواجسه، ورؤاه وانشغالاته(6).

فتصبح لكل قصيدة شعرية أيديولوجيتها الخاصة التي تدعو إليها، قد تكون هذه الإيديولوجية مباشرة وفي متناول الجميع، وقد تكون غير مباشرة ومتجلية بالرموز في ثنايا النص مما يجعلها غامضة وعصيّة على الفهم.

لهذا يحتاج "النص" إلى ناقد يقتحم أغواره ويحاوره ويفكك خيوطه المتشابكة لكي يتسنى للقارئ الاستمتاع به وتحقيق غايته المنشودة يقول الناقد الفرنسي "رولان بارت": "إن لكل نص إيديولوجية معينة وأن النص في حاجة إلى ظله وهذا الظل هو قليل من الإيديولوجية قليل من الذات"(7).

فالشعر يتبوأ مكانة ويتخذ قيمته من خلال ما توحي به الرموز وما تثيره فـــي المتلقـــي الذي يسعى إلى تمثل الأسلوب الرمزي ، وتفهّم الأسرار التي يختزلها[8].

وهو كذلك موقف جمالي ونتاج الوعي للروح الباحثة عن نفسها أولاً والمتفاعلة مع قضايا شعبها ثانياً، حيث تصنع التاريخ وتنطلق جادة لمناصرة الإنسان المقهور بكل قوة[9].

"ويرتبط الرمز بالدلالة ارتباطاً وثيقاً إذ إن الرمز يتخذ قيمته مما يدل عليه ويـــوحي بـــه ولعله الوسيلة الناجحة إلى تحقيق الغايات الفنية الجمالية، وإلى إدراك مـــالا يمكـــن إدراكـــه ولا التعبير عنه بغيره ولاسيما إذا اتحد مع وسائل أخرى في السياق الشعري، لأن الرمز ابن السياق وهو سمة النص"[10].

إن تركيب بعض الرموز وتسلسلها يمنحان النص دلالات مختلفة تكون مدهشة محيـــرة ولكنها في الوقت ذاته متجددة ومثيرة . فالدلالة الأدبية حين تتخذ الرمز إطارها أو حين تتوقـــف عند علاقات اللغة والأشياء ببعضها لا تحافظ على معانيها المسبقة بـــل تتخـــذ معـــاني مختلفـــة فمعناها هو حاضرها وليس ماضيها.

والدلالة في نظر كثير من الفلاسفة والباحثين تتناول اللفظة والأثر النفسي أي ما يســـمى أيضـــاً بالصورة الذهنية والأمر الخارجي ، ومن الواضح أن الدلالة الخارجية هنا تعني ما يسمى عندهم بالدلالة "الوصفية" أي الدلالة الرمزية، Symboltc[11].

فإذا تأملنا جيداً "الخطاب الأدبي" نجده عموماً خطاب رمزي في الاعتبار الأول؛ فهو رمزي فـــي محصلته النهائية، ورمزي أيضاً في حلقاته الجزئية النامية أي أنه جهد تعبيري يحتشد بالـــدلالات الرمزية التي تتفاوت من شاعر إلى آخر، فالإنسان ذاته كائن رمزي مزحوم بـــالرموز أحلامـــاً

وسلوكاً ونوايا، فكل عمل أدبي مهما كانت قيمته أو مدى تماسكه يشتمل على مدلول رمزي ، فالرمز ماهو إلا عبارة أو كلمة تعبر عن شيء أو حدث يشتمل على مدى من الدلالات تتجاوز حدوده ذاتها، وهذا الرمز يمكن أن يقدم للقصيدة عوناً أساسياً للتعبير عن موضوعها، فهو يمتلك طاقة هائلة لخدمة الفكرة أو الموضوع الشعري .

والفكرة التي يعبر عنها بطريقة مباشرة تكون كما تشير موسوعة "برنستون" للشعر والشعرية "صعبة، فاترة ، مطولة، أو راكدة" ، أما حين تستخدم الرمز في التعبير عنها فيمكن أن تصبح "جلية ، حيوية ، موجزة، ومؤثرة وجدانياً"[(12)].

فاللغة ما هي إذاً إلا عبارة عن أداة رمزية يتم بواسطتها التعبير عن أفكارنا ومشاعرنا ، وعن طريقها يتحقق التواصل مع الآخرين وبهذا تعّدُ اللغة هي القالب الذي يتشكل فيه الفكر ويجسده في الواقع من خلال الألفاظ اللغوية التي تعبر عنه والتي من الضروري أن تكون مطابقة للمعنى المشار إليه لتفادي أي غموض أو لبس من شأنه أن يثير العديد من الإشكاليات اللغوية والفلسفية وبهذا يتم تحقيق دلالة اللفظ على المعنى[(13)].

فلقد كانت قضية الوطن والحرية هي الشغل الشاغل للشعر والشعراء في ليبيا، وفي هذا يقول الدكتور علي فهمي خشيم: "ولا أكون مغالياً إذا قلت إنه ما من أمر يتعلق بهما إلا وكان شاعر اهتم به وكان له في شعره الحظ الأوفر، وكانت حرية الكلمة أعلى الحريات، وأعزها ذلك – ببساطة– لأن الكلمة والحرية لا تنفصلان، إذ لا تعبير عن حرية الإنسان إلا بالكلمة التي هي البداية والخاتمة لكل شيء في الوجود.[(14)].

"لقد شكل التراث الديني مصدراً من أهم المصادر التي اتكأ عليها الشعر لتطوير أدواته التعبيرية ، وإثراء طاقاته الإيحائية ، وبناء صوره ورموزه الشعرية، ومن أجل تحقيق نوع من التواصل مع الجماهير التي تختزن ذاكرتها التاريخية معطيات التراث وتتفاعل وجدانياً مع مفرداته المتعددة التي تشكل جانباً كبيراً من تكوينها الفكري والنفسي"[15]

إن ذلك التراث يحتاج إلى قارئ أو ناقد مبدع ليفك شفرات اللغة ورموزها وتراكيبها ، فالإبداع يكمن في القدرة على رؤية علاقات جديدة بين حقائق الحياة الموروثة وتصورها والقدرة على عبور حاجز العرف والتقاليد السائدة في مجالات الفكر الإنساني كافة فهو رؤية ومبادرة وتجديد، وكذلك مشروع لتعبئة الطاقات في سبيل الإتيان بالجديد المختلف والجوهري[16]

ومن المؤكد أن رمزية الشعر العربي المعاصر لم تعد تلك الرمزية القائمة على الاستعارة والمجاز والكناية وأنواع البلاغة الأخرى، بل أنها أصبحت تستند إلى أدوات وحيل فنية راقية لها دلالاتها وأبعادها الخاصة[17].

وقد وعى الشعراء طبيعة العصر وروحه فراحوا يستلهمون الرموز الحقيقية، وأدركوا تفاعلها مع غيرها في داخل سياق لغوي قادرة على منح بعضها البعض دلالات وفاعليات خاصة سواءً كانت تلك الرموز دينية أو تاريخية، أو أسطورية، أو طبيعية، وستقتصر الدراسة على الرموز الدينية بنوعيها الأحادية والمركبة في شعر علي الفزاني .

ونحن نعلم أن هناك اختلافاً بين دلالة الرمز البسيط المفرد، ودلالة الرمز المركب، فالرمز البسيط لا يكشف إلا عن حقيقة واحدة سرعان ما تتبدد إثارتها، بينما الرمز المركب يظل غنياً متجدداً يكشف عن عوالم الشاعر ويعرب عن خفايا النفس ويظل القارئ "المتلقي" في رحلة بحث

شيقة في تأويل النصوص ولا يصبه الملل، بل إنه كلما أعاد القراءة أكتشف أسرراً أخرى، فهو كالأعمال الخالدة التي تحوي في ثناياها أساليب أدبية متنوعة من رمز وأسطورة وغيرها.، إذ لا تنقضي عجائب تلك الأعمال ولا يفتر تأثيرها[18].

وهو كذلك "معنى يقوم القارئ بإستشفافه من خلق المعنى الظاهري للمفردات في سياقها العام"[19]

فهو ينتزع المعنى من خلال مجموعة الصور والإشارات التي يقدمها الشاعر بحيث توجه انتباهنا ، وتدفعنا إلى مستويات ومعانٍ أخرى تختلف عن الأصل وعن المعنى المباشر، فالرمز التركيبي يكون باستلهام الآية القرآنية، أو فقرة أو جملة من الكتاب المقدس، أو باستلهام الحدث التاريخي ويكون كذلك بالتحام رموز معينة ينتقيها الشاعر حيث تتداخل الرموز وتتحد من خلال خيط تاريخي أو فني رفيع وتأخذ معاني متعددة تتكثّف بسبب ذلك التركيب والتوليف كأصوات لها دلالات وأبعاد مميزة[20].

فعند التمعن في جلّ دواوينه نجد بعض تلك الرموز واضحة جلية ففي قصيدته "السقوط إلى الداخل" يقول:

في داخلي الأنا دقيقة، دقيقة تموت

كموت يونس البطيء، عبر بطن الحوت

لكنها جنائز الأشياء إذّ تفوت

لا شيء غير موتها .... لا شيء غير ظل الموت[21].

قد استخدم الشاعر الرمز الديني الآحادي "البسيط" يونس عليه السلام ، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الفُلْكِ المَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المُدْحَضِينَ﴾ (22) .

وفي قوله أيضاً: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾(23) .

حيث شبه الشاعر تعبه ومعاناته وغربته ودخوله نحو أعماق ذاته، بدخول سيدنا يونس –عليه السلام– في جوف الحوت، وكأن أعماق الحوت هي أعماق الشاعر هنا يرمز الشاعر للموت البطيء، وفقدانه الأمل في نشر السلام والأمان.

ويشير إلى الرمز الديني الأحادي "**يعقوب عليه السلام**" في قصيدته "عين يعقوب" حيث نلحظ أن الشاعر قد أشار إلى هذا الرمز بوضوح ومباشرة من خلال اختياره لعنوان القصيدة وتتجلى بوضوح للقارئ ما جاء في القصص القرآني ، فما بالك أن يشير إليه أيضاً في ثنايا القصيدة. فمن المتعارف عليه في القصة أن يعقوب عليه السلام قد فقد بصره من شدة بكائه وحزنه على ابنه يوسف –عليه السلام– وقد أرتد إليه بصره عندما جيئ له بقمصيه وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(24).

لقد أشار لهذا الرمز حيث يقول:

عين يعقوب تغني بدموع الحزن والفقدان

في يوم الرحيل

ذكريات الفارس المهزوم يمضي

أصفر العينين مقرور الذبول[25].

لقد استخدم الشاعر عين يعقوب الباكية رمزاً للفقد والانتظار، وقد أشار إلى هذه الحادثة دليلاً على تأمله قدوم من سيقود ثورة لرفع الظلم، ونشر العدالة مهما طال الانتظار.

ويتكرر المعنى نفسه في مقطع آخر من القصيدة حيث يقول:

عن يعقوب تغني في انتظار

فارس يعطيك يا أم المحار

إن آلام السنين

لم تزل ندباً على وجه اليقين

مات عُريِ والبقايا في

جبين الآخرين[26]

ويشير كذلك إلى الرمز الآحادي البسيط "يوسف" عليه السلام في قصيدته: "احتراق الهودج" حيث يقول :

تمر السنون عِجَافاً عَلى دربُنَا

ونَحنُ بحلَقِ القَدَر

حَنين، إلى ومَضةٍ لاهِبة

إلى ما يروي العروق جحيماً ونارُ

إلى مايدك قِلاع الجليد
إلى ما يشُد ارتياع القرار الذّليلُ
يُثير غُبارَ السنين الطوال
رَدىً ومخاضاً .. عنِيدَ الصمُود[27].

فعندما ذكر الشاعر "السنين العجاف"، فإننا نرى فيها سنين يوسف عليه السلام، وهي سنين الجوع والفقر، وقد شبهها الشاعر بالسنين التي عاشتها الأمة العربية وهي تحت حكم الأعداء الذين قاموا بالمؤامرات والمكائد، والدسائس للنيل منها وهي ساكنة لا تتحرك.

فالشاعر قد أجاد التقنع بشخصية يوسف وقصته ورؤياه محاولاً منه التعبير عن رفض الواقع الأليم، والظلم الذي تعانيه الأمة العربية فحاول أن يبثّ ذلك من خلال كلماته فقد استتصص من القرآن الكريم من سورة يوسف قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [28].

ومن الرموز الأحادية التي استخدمها الشاعر أيضاً الرمز الديني موسى –عليه السلام– وهو واحد من الرسل الذين بشرّوا بقيم سماوية نبيلة وتحمّلوا في سبيل دعوتهم الكثير من العنت والتضحيات ، وقد لقي من عنت اليهود أنفسهم الكثير، وقد أخذت هذه الشخصية دلالات كثيرة منها انطفاء القيم الدينية السماوية في وجدان الإنسان المعاصر وإحساسه بعجزها عن أن تكون درب خلاص له؛ فقد أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾[29].

وأشار إليه الفزاني في قصيدته "عذاب الأجيال" حيث يقول:

آه ياجرحي العتيق

أين هارون الشقيق

ليحل العقدة الصماء من حرفي وفي غوري السحيق[30].

نجد الشاعر في هذه الأبيات يتقمص شخصية موسى عليه السلام وهو يبحث عن شقيقه (هارون) ليحل عقدة من لسانه فتضرع موسى لله سبحانه وتعالى ليجعل أخيه وزيراً له لتميزه بالفصاحة وطلاقة اللسان، فمن خلال هذا الرمز صور الشاعر معاناته مع الفكر والكلمة، والكبت المفروض، فهو يعجز عن التواصل مع الآخرين، وعن إيجاد الحرية في إبداء الرأي الذي يرى فيه تحرره وخلاصه وحرية الآخرين.

كما استخدم الفزاني بعض الرموز المركبة من بينها الرمز "قابيل وهابيل" فقد ورد ذكرهما في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ* لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ* إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ* فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[31] .

فقابيل ابن آدم، أول قاتل على وجه الأرض متحدياً إرادة أبيه، وإرادة الله، قتل أخاه ليمنعه من الزواج من أخته التوأم، ويقال إن حواء كانت تنجب من كل حمل توأماً ولداً وبنتاً، فكان كل ولد لا يتزوج أخته التي ولدت معه، وإنما يتزوج فتاة التوأم الآخر، وقد تمرد قابيل

على هذه الشرائع، لأن الفتاة التي ولدت معه كانت أجمل من التي ولدت مع هابيل، ومن ثم أراد أن يحتجزها لنفسه، ولما احتكما إلى أبيهما طلب منهما أن يقدما قربانين، والذي يتقبل قربانه يتزوج الفتاة المتنازع عليها، فتقبل الله قربان هابيل، فقتله قابيل ليمنعه من الزواج بأخته(32).

فقد كان قربان هابيل جدعة سمينة، وكان صاحب غنم، وقربان قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه، فنزلت نارٌ فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب وقام بقتل أخيه(33).

ومن المعلوم أن أكل النار للقربان هي علامة قبوله عند الله تعالى.

وبذلك أصبح "قابيل" رمزاً للشر والأنانية، بينما "هابيل" رمزاً للتضحية والخير.

لقد وظّف الشاعر هذا الرمز المركب "قابيل وهابيل" توظيفاً رائعاً يلفت الانتباه فقد وجد فيه – ما يكشف عن المعاناة والمأساة لكل قضية من القضايا المحورية في هذا القرن، لأن علاقة هذين الشخصين علاقة سلبية لأنها تصور أول جريمة وقعت على وجه الأرض والتي مهدت السبل إلى الجرائم كلها ماضياً وحاضراً(34).

فإذا تأملنا هذا النص جيداً نجد ذلك الرمز يسرد ما جاء في القصص القرآني. يقول الشاعر في قصيدته "قابيل" :

قابيل قتل رجلاً واحداً فقط

من أجل المرأة الوحيدة في العالم

قابيل وارى جثة أخيه

في قبر دافئ(35)

ويقول في القصيدة نفسها:

في القرن العشرين الدموي
يقتل الطاغية الواحد
ألف إنسان في ساعة واحدة
يقطعهم أشلاء !
يمزقهم إرْباً إرباً
يحرقهم(36)

لقد صور الشاعر جريمة قابيل التي تعد أول جريمة حدثت على وجه الأرض، واكتسب من دلالة هذا الرمز المركب دلالات وأبعاد معاصرة ، وكأنه نقل القضية القديمة في الموروث الديني إلى قضية محورية معاصرة وهي قضية الشعوب المظلومة من قبل الدول الطاغية في القرن العشرين ، حيث نلمس ذلك في الجريمة التي ارتكبتها أمريكا في حق اليابان ، وكذلك ما حدث للعراق ، وما نشاهده في فلسطين المحتلة اليوم.

فرمز قابيل عند الفزاني لا يقف عند ابن آدم الذي نعرفه، ولكن يتعداه إلى قابيل العصر الذي امتهن حرفة القتل، وسلط كلّ ما يملك من وسائل الدمار، لقتل الحريات، ومصادرة الأفكار، فهو يرمز إلى المستعمر الذي عاث فساداً في الأرض.

فقد تجاوز الشاعر الدلالة الأصلية لهذا الرمز المركب ليشرك القارئ ويلهب أشواقه ، ويبعث فيه الإحساس بالدلالة الحقيقية والتأويل المنطقي للنص أو الرمز ولإشراكه في فعل الحركة والثورة.

الرمز المركب "عاد وثمود" :

لقد شكلت قصة عاد وثمود حيزاً كبيراً في شعر الفزانـــي وقــد اســتعملت اســتعمالات متعددة، فأحياناً يستعمل ما فعلته عاد وثمود بالأنبياء وتكذيبهم لهم، وهو ما يحدث في هذا الزمان فقد مُنعت الأقلام من الكتابة وكممت الأفواه على النطق بالحق وكُذبت الناس كما كــذبت ثمــود بنبيها. حيث يقول في قصيدته "مذكرات برميثيوس":

تحتقر الأقلام
والجيفة السوداء فوق هذه الأزلام
(ثمود) كذبت حروفنا
وارهقوا مدادنا بأرض (عاد)
وعلقوا رؤوسنا على ذرى بغداد
أنا وأنت .... كلنا (حلاج)
يموت واقفاً
والباب مقفل، بلا رتاج [37].

ففي هذه الأبيات يتجاوز الشاعر مشكلة السرد والحكي، والتقيد بالحدث الأصــلي لتلــك القصــة الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ [38] وفي قولـــه: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾[39] وفي قوله أيضاً: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾[40] واكتفى بالإشارة بذكره للرمز. فقد أضاف وحور وذلك لاختلاف الزمان والمكــان بــين الرمــز والمرموز، وليثير في المتلقي حافز الثورة والتمرد والإصرار على التغيير فحــاول أن يصــف

أصحاب الرسالات الذين تعرضوا للتكذيب والتسفيه وهذا هو الموقف نفسه الذي يحسه الشاعر من قومه وأبناء بلده حين يطرح عليهم رؤيته وأفكاره ، فلا يجد منهم سوى موقف المكذب.

ويشير إلى هذا الرمز المركب أيضاً في قصيدة "من حرب البسوس إلى دون كيشوت" حيث يقول:

يا ثورة الفقراء: إني قد أفقت من الذهول
وعرفت أن هناك قارعة تجول
أنا هنا، نبني غداً انا نعيد
قدر العروبة للوغى . فلم الجمود؟
انظر هنا، في كل قطر . مثلما تفنى ثمود
يتزاحم الأجراء... أيدٍ خاويات، لا تعود
إلا بما تركت كلاب المستفيد من الجمود
ماذا سوى: وطن سليب(41)

فهو يرمز إلى جمود الأمة، وموت الحراك فيها، فمثلما فنيت عاد وثمود ستفنى كل الأمم وهي هكذا جامدة لا تتحرك.

كذلك يشير إلى "عاد وثمود" في ديوانه "دمي يقاتلني الآن" حيث يقول:

كان يؤوي شاعراً .... ملقى جريح
وقع القول على أحفاد عاد وثمود
عندما الإنسان يغدو صخرة عبر المدائن

تغضب الأرض فتلقي .. بالجحيم(42) .

ونراه مرة أخرى يستعمل "عاد وثمود" بمعنى الموت والفناء، فهو يذكرهما تعبيراً عــن جمــود الأمة، وموت الحراك فيها، ولا يقتصر هذا على بلد واحد، بل في كل قطر من أقطار أمتنا.

هنا الشاعر طوع هذا الرمز المركب وحوره ليبث في القارئ أن حريــة الــوطن مــن أغلــى الحريات .

مما سبق تخلص إلى الآتي:

1- لقد شكلت قصص الأنبياء حيزاً كبيراً في شعر الفزاني وقد تجــاوز فيهــا مشــكلة الحكــي والسرد والتقيد بالحدث الأصلي لتلك القصص الواردة في القرآن الكريم، فقد اكتفى الشــاعر بالإشارة إليها عن طريق "الرمز" سواء باستنصاص آيــة أو كلمــة مــن القــرآن الكــريم كاستخدامه "للسنين العجاف" و "لطوفان نوح" وغيرها مما ذكرنــا ، أو بــذكر شخصــيات الأنبياء مثل يوسف، ويعقوب ويونس عليهم السلام كرموز وذلك لاختلاف الزمان والمكــان بين الرمز والمرموز ولغاية في نفس الشاعر ليجعل منه شريكاً في صناعة النص.

2- إنّ استخدام الشعراء لكافة الرموز سواءً كانت دينية أو تاريخية أو أسطورية راجعاً إلى :

أ- عمق المخزون الثقافي والإرث الديني لدى الشعراء .

ب- وجد الشعراء في استخدام تلك الرموز ودلالاتها متنفساً عما تعانيه الــبلاد مــن الأوضــاع السائدة في ذلك الوقت ، فكان الشاعر يتقنــع فــي مواجهــة الســلطة الدينيــة والسياســية

والاجتماعية مما يجعله ينقاد إلى الكتابة الباطنية أو الشفرية التي تكتب بعلامات لا يعرفها سوى كاتبها أو قارئها فهي ترميز سري بالكتابة.

3- يرتبط الرمز بالدلالة ارتباطاً وثيقاً إذ أنّ الرمز يتخذ قيمته مما يدل عليه ويوحي به، فالرموز العامة لم تسهم في تطور القصيدة الحديثة وإن كانت جزءاً من بنائها ولغتها فعليه أن يتجاوز تلك الرموز الجاهزة وأن يعيد شحنها ليجعلها أكثر صلة به لتثري حداثة الشعر وحداثة الرؤيا على حدّ سواء فيصبح للشاعر الحديث رموزه الشخصية ليحقق غاياته الفنية والجمالية فقد يفرض الواقع الجديد على الشاعر لغة جدية قادرة على استيعاب تطورات وتحولات المرحلة الحديثة.

4- هناك اختلاف بين دلالة الرمز البسيط "المفرد" ودلالة الرمز "المركب" فالرمز المركب يظل متجدداً يتيح للقارئ أو المتلقي فرصة تأويل النصوص فكلما أعاد قراءتها يكتشف أساليب وأدوات فنية متنوعة كما في رمز "قابيل وهابيل" بينما يظل الرمز البسيط "بسيط" سرعان ما تتبدد إثارته لمجرد قراءته أو إعادة تكراره.

5- استخدام الفزاني بعض الرموز ودلالتها الأصلية في بعض قصائده ونلحظ ذلك في استخدامه للرمز الديني "يوسف عليه السلام" مثلاً وأحياناً يتجاوز الدلالة الأصلية ليحث القارئ على التأمل في الدلالة الحقيقية للنص ولإشراكه في ملء فجواته.

6- إن القارئ للقصيدة الحديثة أو الناقد المبدع الملم بأساليب وأدوات الحداثة – كلما أعاد قراءة ذلك النص تقع حواسه على مظاهر مثيرة تتيح له فرصة إنتاج دراسة جديدة وفق آليات وأدوات الدراسة الحديثة.

هوامش البحث:

(1) ينظر: الوحيشي ، الرمز في الشعر العربي، عـالم الكتـب الحـديث، اربـد-الأردن، ط1، 2011، ص: 72-73.

(2) على جعفر العلاق، في حداثة النص الشعري، دار الشروق للنشر والتوزيع عمـان-لأردن، ط1، 2003، ص: 46-47.

(3) نفسه ، ص: 47.

(4) ينظر: صبحية عودة زغرب، النص بين التأويل والتحليل والتلقي، مجلس الثقافة العـام، د-ط، 2008م، ص: 181.

(5) ينظر: علي جعفر العلاق، في حداثة النص الشعري، ص:46-47.

(6) ينظر: نفسه ، ص: 47

(7) ينظر: صبحية عودة زغرب، قراءات نقدية في الأدب الليبي المعاصر، المؤسسـة العامـة للثقافة ، الجماهرية ، ط1، 2009، ص:207.

(8) ينظر: ناصر لوحيشي، الرمز في الشعر العربي، ص: 64.

(9) ينظر: صبحية عودة زغرب ، قراءات نقدية في الأدب الليبي المعاصر، ص:207.

(10) ينظر: ناصر لوحيشي، الرمز في الشعر العربي، ص:10.

(11) ينظر : نفسه ، ص: 152.

(12) ينظر: علي جعفر العلاق، في حداثة النص الشعري، ص:45.

(13) ينظر: سالمة صالح، طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة ، مجلس الثقافة العام، طرابلس-ليبيا، 2008، ص:31.

(14) ينظر: علي فهمي خشيم، الشعر ومعركة التحرير الوطني، مجلة الفصول الأربعة ، العدد السادس، ص: 74.

(15) ينظر: عوض محمد الصالح، الشعر الحديث في ليبيا، منشأة المعارف بالإسكندرية، د-ط، 2002م، ص: 482.

(16) ينظر: محمد بن عبد الحي، التنظير النقدي والممارسة الإبداعية ، منشأة المعارف بالإسكندرية، د-ط، 2001، ص:9.

(17) ناصر لوحيشي، الرمز في الشعر العربي، ص: 59.

(18) ينظر: نفسه ، ص:152.

(19) صالح أبو أصبع، الحركة الشعرية في فلسطين ، ص: 59.

(20) ينظر: ناصر لوحيشي، الرمز في الشعر العربي، ، ص: 157.

(21) علي الفزاني، المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس-ليبيا، ط4، 1966م، ص: 234.

(22) سورة الصافات، الآيات: 139-141.

(23) سورة القلم، الآيتان: 48-49.

(24) سورة يوسف، الآيات 91-93.

(25) علي الفزاني، المجموعة الأولى من الأعمال الشعري الكاملة، ص: 287.

(26) نفسه، ص:288.

(27) علي الفزاني، مواسم الفقدان، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس-ليبيا، 1977م، ص:48.

(28) سورة يوسف ، الآيات 42-48.

(29) سورة طه، الآيات: 25-36.
(30) الفزاني، المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة، ص: 311.
(31) سورة المائدة، الآيتان: 27-29.
(32) بنظر: علي عشري زايد، أستدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، الجماهيرية، ط1، 1978م، ص: 125.
(33) ناصر الوحيشي: الرمز في الشعر العربي، ص: 157
(34) نفسه : 154.
(35) علي الفزاني، أرقص حافياً، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس-ليبيا، ط1، 1995م، ص:57-58.
(36) نفسه، ص:57-58.
(37) علي الفزاني، المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة، ص:248 .
(38) سورة الحاقة ، الآية: 4
(39) سورة الحج ، الآية: 42.
(40) سورة الشعراء ، الآية: 141.
(41) علي الفزاني ، دمي يقاتلني الآن، والقنديل الضائع في أعماق المدن الوثنية، (ديوانا شعر في كتاب واحد) ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس-ليبيا ، ط1، د-ص، ص: 138.
(42) نفسه، ص: 92.